## (09) المشكلة الأولى [ المذهب العقلاني والمذهب التجريبي ]

"إذا كان لكلٍّ من المذهبين : العقلاني والتجريبي . في مجال مصدر المعرفة . نسقُهُ المنطقي، وإذا كان، لا يُعقل . لهذا السبب . رفضهُما أو رفض أحدهما، فأيُّهما نتبنَّى، وأيهما نرفض، وهل يجوز الأخذُ بهما معا، على الرغم من تنافرهما؟"

***

**مقدمة** : طرح المشكلة

**I . المذهب العقلاني**

**أولا** : مدخل إلى المذهب العقلاني ؛

**ثانيا** : مسلمات المذهب العقلاني؛

**ثالثا** : اختبار المسلمات.

**II . المذهب التجريبي**

**أولا** : مدخل إلى المذهب التجريبي ؛

**ثانيا** : مسلمات المذهب التجريبي؛

**ثالثا** : اختبار المسلمات.

**III . الفلسفة النقدية بين العقلانيين والتجريبيين**

**أولا** : في المجال المعرفي؛

**ثانيا** : في المجال الأخلاقي.

**خاتمة** : حل المشكلة.

**تطبيق : نص فلسفي**

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

## مقدمة : طرح المشكلة

ما مصدر المعارف التي يحملها الإنسان؟ هل هو العقل أو التجربة؟ فإن كان العقل هو المصدر الحقيقي للمعرفة، فهل معنى هذا، أنه كان سيكون المسؤول عن ذلك، حتى في حالة غياب التجربة والحواس؟ وإن **افترضنا** أن التجربة هي المصدر، فكيف تتشكل المعرفة من غير عقل؟ وقبل الفصل في القضية، يكون من المفيد الإطلال على رأي كلٍّ من العقلانيين والتجريبيين، وتقديرُ النسق الفكري لكل طرف منهما.

## I. المذهب العقلاني :

إنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتميز بالعقل؛ هذا العقل الذي لا يظهر بالضرورة عند الولادة، لأن مكوِّناته فطرية وكامنة وتامة التكوين؛ ومع ذلك، نراه يأخذ في الظهور تدريجيا مع نمو الإنسان وبلوغ رشده. وهو أيضا، **مَلَكة فطرية لدى جميع الناس، تحتوي على مبادئ كلية وعالمية وثابتة**، تَصلح لكل الأوضاع في كل زمان ومكان. أمّا الحواسُّ، **فلو كانت تشكل في الحقيقة، مصدرا للمعرفة، لكان الحيوان أحقَّ بها** أيضا، نظرا إلى تزودها بالحواس، ولكان سيشاركنا في خاصية العقل. وهذا باطل. وحتى إذا عقدنا لها بعض الدور، فليس لها دور معرفي ولا آثار موثوق بها. ولهذا، فإن وراء أيّ إحساس أو تجربة، عقلا يمنح الأشياء الإطار العقلاني الملائم، ولا يقوى على ذلك إلا لأنه يملك بالفطرة، الأدوات التي تساعده في ذلك. ومن هذه الأدوات، يمكننا استشفافُ مبدأ الهوية ومبدأ السبب الكافي وكذا فكرة وجود الله. ومن الملاحظ أن **السؤال المشكل** : هل

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

العقل ثابت في عالم الأشياء المتغيرة؟ وهل سيظل ثابتا ؟ سيجيب عنه **المذهب العقلاني**، بالكيفية التي يراها سليمة، والتي تنطبق مع أسسه ونظامه.

## أولا : . مدخل إلى المذهب العقلاني

ألا تعتقد؛ أخي الطالب؛ أننا عندما نعرِّف الإنسان نقول عنه أنه : "حيوان **عاقل**" ؟ ألا ترى أن العقل هو الصفة الجوهرية التي تميّز الإنسان و ترفع من مرتبته بين المخلوقات؟ و يترتب عن هذه الميزة أنه الوحيد القادر على تحمّل المسؤولية وتعمير الأرض ؛ ألا تلاحظ أن بلوغ سن الرشد عنوان النضج العقلي؟ ألا ترى بأن الله سبحانه وتعالى يخاطب الإنسانية بصفة العقل : منها أفلا يعقلون ؛ يا أولي الألباب ؟ ألا ترى **أنّ أفكار و أفعال الإنسان و تصرفاته** . مجموعةً . **توحي بأنها تستجيب لنظام فكري محدد وتوجُّهٍ نسَقي معين، تستجيب للعقل باعتباره مجموعة من المبادى الكلية والبديهية** ؟ إن كل التشريعات تأمر الإنسان وتنهاه باعتباره كائنا عاقلا ؛ إنّه لَمِن التناقض ومن اللاّعدل أن نكلِّف شخصا لمهمةٍ ما وهو فاقد لقواه العقلية ؛ فإذا كنت تمجد العقل فيمكن وصفك بأنك عقلاني أو أنّك **ديكارتي** ( Cartésien )[1] ؛ لذلك **يُطلق اسم العقلانية على كل نزعة فكرية تقدس وتمجِّد العقل، وتجعل منه المصدر الأول لكلّ ما يمكن أن نعرفه ولكلّ ما يجب أن نعمله**، والعقل هو الأداة الأساسية التي تحرك كل المراحل المنطقية التي يسير عليها الاستدلال المنطقي .كما سترى ذلك لاحقا .، و**العقل هو المقياسَ الأول في تقدير القِيم والمعايير كالخير والصواب والجمال.**

---

1. نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي **ديكارت** ( 1596–1670) الذي خلّص الفلسفة من سلطة الكنيسة و ردّ الاعتبار لسلطة العقل .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

**دوّن معي؛ أخي الطالب ؛ ما يلي :**

**. مفهوم العقلانية :**

العقلانية نزعة تطلق على أنحاء شتى ومجالات متنوعة، في مجالات الميتافيزيقا واللاهوت وفي نظرية المعرفة وفي مجال الأخلاق؛ وبالتالي **فالعقلانية معالجة وتفسير وتقييم لمعظم القضايا التي يطرحها الفكر. وهي نزعة نسقٍ معرفيٍّ متكاملٍ يتعارض مع اللاعقلانية، لأنها تعارض كل من يأخذ بمصدر آخر غير مصدر العقل ؛ كما هو الحال لدى التجريبيين( الذين يرجعون ذلك إلى التجربة الحسية )؛ فالعقلانية نزعة تتعامل مع الآليات العقلية والمنطقية وأُسسِها كالبداهة والبرهنة والاستدلال.**

**وهكذا إذن، فالعقلانية مذهب فكري يقول بأولية العقل وأنّ جميع المعارف تنشأ عن المبادئ العقلية القبلية والضرورية الموجودة فيه والملازمة له، والتي ليست متولدة من الحس أو التجربة. والأشياء لا يمكن أن يكون لها وجود بمعزِل عن ذهنٍ يدركها ويعيها؛ أمّا التجربة فهي بديلٌ للعقل أدنى منه مرتبة، وأن المعتقدات والمبادئ، والمعارف عموما، التي تقوم عليها وعلى الخبرة مشوبة بالخطأ.**

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

## ثانيا . مسلمات[1] المذهب العقلاني :

إن قراءة الإنتاج لبعض من ينتمي إلى العقلانية من المفكرين والفلاسفة ( أمثال أفلاطون وابن رشد وديكارت ...الخ )، توحي بأن هذه النزعة **تقوم على أساس مصادرة جوهرية واحدة، وهي أن الأصل الأوّل للعلم الإنساني ومصدره الأسبق، هو العقل، وليس التجربة**. ويكون معنى ذلك، أن المعارف التي يملكها الإنسان مهما تسلسلت حلقاتها، ترجع في نهاية الأمر، إلى منبعٍ أوّل و واحد هو **العقل**. ولهذه المصادرة، مسلمات جزئية أربع، وهي :

**أ . ترجع المعرفة الحقيقية و اليقينية إلى ما يميّز الإنسان**؛ وما يميزه، هو **العقل** ؛ وهذا **العقل قوة فطرية لدى جميع الناس**، ينهلون منها المعارف، يثقون فيها ويطمئنون إليها. أما الحواس فموضوعُها عالَمُ الأشياء ومعطياتهُا لا تثبت على حال. فما هو كبير بحكم العقل يبدو صغيرا في معطيات الحواس ؛ فالقمر يبدو صغيرا ؛ وسرعة الطائرة تبدو بطيئة ... ؛ و**العقل هو الذي يصحح هذه الأحكام**.

**ب . والعقل يتضمن الحقائق والتصورات الكلية والمبادئ العامة**، التي توفر المنطلق الأساسي والأول **للمعرفة والعمل**؛ أي للحق والخير، وهذه **المبادئ هي جزء من ماهيته و جوهره**.

---

1 . وأمّا **المسلمات** ؛ فعبارة عن ما أُخذ من القضايا على أنّه مبرهن في نفسه ؛ فإن كان ذلك مع طمأنينة النّفس، سميت أصولا موضوعة« وإلاّ » فمصادرات. كتاب الكبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين، لسيف الدين أبي الحسن علي الآمدي. المصطلح الفلسفي عند العرب الدكتور عبدالأمير الأعسم الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب ، ص : 345.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

ج ـ ومن مميزات هذه الحقائق التي يحكم بها العقل، أنها كلية **صادقة صدقا ضروريا**، وسابقة لكل تجربة، لا يتطرق إليها الشك. ومنها يستنبط العقل النتائجَ التي تَلزم عنها، وبهذا تتشكل المعرفة **اليقينية** التي تصدق في كل زمان ومكان؛ لأنه ينطلق من معيار البداهة والوضوح والتميز، كما يقول **ديكارت** : " **ألاّ أقبل أيَّ شيءٍ على أنّه حق، ما لم أتبيّن بالبداهة أنّه كذلك** ".

د ـ وهذه الحقائق أو المبادئ العقلية الكلية ليست حكرا على المعرفة مجردة كانت أو مادية؛ **فمنها يستمد كذلك الفيلسوف الأخلاقي قواعده الأولى، ومنها يستلهم المرشدون والمربون والناس العاديون مقاصدهم السلوكية، بدون أدنى بحثٍ عن برهان، لأنها واضحة.**

**نستنتج** ممّا سبق أن **أساس المذهب العقلاني مسلَّمة جوهرية تؤمن بقدرة العقل على إدراك الحقيقة، لأنّه يملك المبادىء والمعايير التي تكشف له وتميّز ما هو حق عمّا سواه، ولهذه المسلمة ما يبرّرها.**

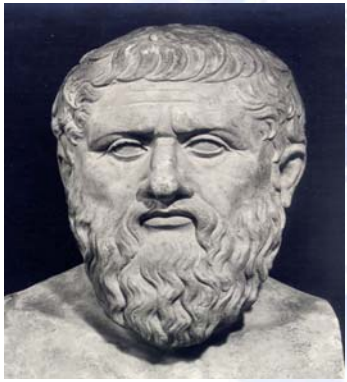

**أفلاطون 428- 347 ق. م**


جميع الحقوق محفوظة ©

## ثالثا . اختبار هذه المسلمات

أ . **ترجع المعرفة الحقيقية واليقينية** إلى ما يميز الإنسان؛ وما يميزه، هو **العقل** لا الحواس؛ وهذا العقل قوة فطرية لدى جميع الناس ينهلون منها المعارف ويطمئنون إليها. أما الحواس فموضوعها عالم الأشياء ومعطياتها لا تثبت على حال. ولكن ؛ أخي الطالب ؛ ألا يوجد ما يبرّر صحة هذه الأحكام التي يعتز بها العقلانيون؟ إن الأفكار التالية ستدافع عن هذه المسلمة وتبرّرها وتؤكد صحتها:

* **لأن العقل** في **جملته**، ملكة ذهنية يستطيع الإنسان بواسطتها، **إدراك المعرفة وإصدار الأحكام وتحديد سلوكه طبقا لهذه المعرفة**. إنه مصدر جميع أفكاره، وقوة فطرية يتأسس أصلا على مبادئ عالمية **(العقل أعدل الأشياء توزّعا بين الناس)**، كما يقول" ديكارت " ؛ وهو فوق هذا وذاك، أصدق **محك للوحي**. فقد أَجَلَّهُ العديد من الفلاسفة وخاصة منهم العقلانيين ووهبوه ثقة مطلقة. وقالوا عنه **بأنّه مصدر كلّ أصناف المعرفة الحقيقية**؛ لا يخضع صاحبه إلاّ لمبدئه وصرامة استنتاجاته." **فالعقل أساس العلم و العمل**" .

* **ولأن كثيرا** من العقلانيين شهدوا النور الذي شع منه (العقل). لقد ردّ له "**ديكارت**" الاعتبار في وقت لم يعرف فيه (العقل) سوى الازدراء والتهميش. فأرجع له سلطانه بعد أن هدمته مدرسة **الشكّاك** التي تزعمها في فرنسا قبله، مونتاني (1533– 1592)، ورفض السلطة الدينية ممثلة في الكنيسة، والعلمية ممثلة في أرسطو، رفَضَهما باعتبارهما، مصدرا للحقيقة، و **ردّ الحقيقة إلى العقل، وجعل البداهة معيارها ومقياس الصواب والخطأ.**

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

* **ولتوافق الوحي والعقل** عند أغلبهم حيث تناصر العقلانية القول بأن **المبادئ الأساسية للدين فطرية أو بديهية**. ومع ذلك، **يجب رفض التسليم بكلّ ما لم يساير منطق العقل**؛ أي رفض كل ما يخالف معطيات العقل والفكر السليم. ومن ثمة، **يبقى العقل خير مقياس لحقائق الوحي**. ولقد شاء القدر أن يرشح **ديكارت** زعيما للاتجاه الفلسفي في القرن السابع عشر، فقضى حياته في تبجيل العقل والعمل بتعليماته بقدر إجلاله لمن زوّده به وهو الله.

* **ولأن هذه المبادئ** الفطرية البسيطة والواضحة لا يشوبها الخطأ، يقول"ديكارت" : "**إنها أفكار فطرية لا يُخشى منها ضرر لأنها لا تؤدي إلى الخطأ إطلاقا**، فهي متصلة بطبيعة العقل اتصالا وثيقا بحيث يستحيل فصلها عنه؛ ومن هنا، كانت فكرتنا عن وجود أنفسنا وفكرتنا عن وجود الله صحيحتين لأنهما **فطريتان ولأنهما واضحتان جليتان تامتان أشد ما يكون الوضوح والجلاء والتمام**".

* **ولأن ما يقوم** على **أسس عالمية، يحقق الاتفاق** بين الناس؛ إنّه العقل الذي يتأسس أصلا بالفطرة على مبادئ كلية، تعرف بالأوليات أو البديهيات؛ وهي مبادئ يدركها جميع الأفراد، من **غير ما حاجة إلى تجربة**، ولا يختلفون فيها لأنهم جميعا، يملكون بالفطرة هذه الأوليات الثابتة والمبادئ الكلية، وفي هذا المعنى، يكتب "ديكارت" قائلا: "العقل هو أحسن الأشياء توزّعا بين الناس، إذ يعتقد كل فرد أنه أُوتي منه الكفاية [...] يتساوى بين كلّ الناس بالفطرة". وهذه المبادئ بأسلوب أوضح، **ليست من أثر العالم الخارجي فينا، ولكنها تُولد معنا** [...]، فهي أساس جميع أفكارنا"[1]، **كمبدأ الهوية** الذي يقول : " إن الشيء هو

1 . كمال يوسف الحاج ، رينه ديكارت أبو الفلسفة الحديثة ، ص . 106

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

عين ذاته، ولا يمكن أن يكون شيئا آخر في نفس الوقت ومن نفس الزاوية"؛ و**مبدأ عدم التناقض** الذي يقرر"أن الشيء، لا يمكن أن يكون (موجودا) و(لاموجودا) في آن واحد "؛ و**البديهيات الرياضية** كقولنا : " الكميتان المساويتان لثالثة متساويتان" ؛ وأنّ " الكلّ أكبر من جزئه ". ومن هذه الأفكار الفطرية والمبادئ الأخلاقية الأولية كالخير والشر، والحقائق الإلهية كفكرة الخالق.

وهذه الأوليات أو البديهيات تسمى عند المسلمين، بالمعقولات الأولى (أو الفطرية أو الضروريات أو الأوائل المتعارفة)، بحيث قِيل : " تحصل للإنسان منذ أوّل أمره من حيث لا يشعر، ولا يدري كيف ومن أين حصلت". وهي أيضا، قضايا يصدّق بها، العقل الصريح لذاته، وبفطرته، لا لسبب من الأسباب الخارجية عنه، من تعلّم أو تخلّق أو تجربة، ولا تدعو إليها قوة الوهم أو قوة أخرى من قوى النفس. **مثال ذلك أن الإنسان؛ قديما و حديثا؛ يرجع وقوع الحوادث إلى أسباب وغايات بغضّ النظر عن طبيعة هذه الأسباب والغايات. فكلّ ما يرفضه العقل هو وقوع حوادث دون أسباب، لأن هذا منافٍ للمعقولية.**

* **ولأن ما يصمد** أمام قوة الشك؛ كما هو شأن فكرة "وجود أنفسنا" كفكرة شديدة الوضوح لا مفر منها[1]. ولتقريب الغرض من هذه الحجة، يمكننا تلخيص تجربة "ديكارت" في الصورة الاستدلالية التالية : "إذا كنتُ لا أستطيعُ أن أشُكَّ في شكِّي، فإنيِّ على الأقل، مُتيقِّنٌ بأنني أشُكُّ؛ وإذا كنتُ على وعْيٍ بأنني أشك، فأنا أفكر دائما؛ وكوني أفكر دائما، هي قاعدة صلبة لا أَحِيدُ عنها لأنها

1 . يقول ديكارت: "(أنا كائن وأنا موجود) قضية صحيحة بالضرورة، { وتبقى صحيحة } كلّما نطقت بها وكلّما تصورتها في ذهني". (التأمل الثاني، الفقرة، 5).

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

إثبات لوجودي، ولأنّها في غاية الوضوح وسبب هذا اليقين الذاتي أن الله يُلْقي فينا فطريا بعض الأفكار: فكرة الله، وأفكار الشؤون الرياضية، ويمنحنا المفهوم المباشر الخاص ببعض المبادئ الأولية. و يجعل الذهن فينا يأتي بهذه الأفكار من نفسه، ومن نفسه **فقط**. فالذهن بفضل الله يملك هذا الاستعداد الطبيعي، لأنه يجد في ذاته بوساطة الشهود المباشر، المفاهيم التي تدل على ذوات حقيقية أزلية وثابتة لا تتغير؛ وهي حالة يعدّها **ديكارت** الآن، موجودة في داخل الذهن نفسه بعد محنة الشك الذي طرحه.

* **ولأن اليقين** والتماسك الذين يطمح إليهما كل باحث عن المعرفة، يوفرهما العقل الاستدلالي الصحيح كما هو الحال في الاستدلال الرياضي، **رمز الدقة واليقين والصرامة وكذلك الحال بالنسبة للمنطق الصوري والرمزي**. وهذه الغاية لا تحققها التجربة، ونتائجها نسبية واحتمالية كما سنرى ذلك في المنهج التجريبي.

* **ولأنه (العقل) أخيرا**، بفضله يهتدي الإنسان إلى اكتشاف **خِداع الحواس**، وهذه حقيقة يكتشفها بنفسه. يقول ديكارت[1]: " **كل ما تلقيته حتى الآن على أنه أصدق الأشياء وأوثقها، قد تعلمته من الحواس أو عن طريق الحواس : غير أنني اختبرت أحيانا هذه الحواس، فوجدتها خدّاعة(صيغة للمبالغة)؛ وأنّه من الحذر ألاّ نطمئن أبدا إلى من خدعونا ولو مرة واحدة** ".

وفعلا، فإنه لم يشك في الأشياء فقط، ويسحب الثقة عن حواسه فحسب، بل شكّ أيضا، في جسمه بحجة أن ما كان يراه في الحلم تحوّل إلى أوهام بمجرد الانتقال إلى اليقظة. إلا أنّه تثبَّت من أن **الأفكار الرياضية ما تزال صامدة**

---

[1] . تأملات في الفلسفة الأولى، ترجمة عثمان أمين، التأمل الأول الفقرة 3.

جميع الحقوق محفوظة © http://www.onefd.edu.dz

**على الدوام** إذ أضلاع المثلث تبقى دائما ثلاثة، وبأن الكائن الذي يحمل بالفطرة تصور اللانهائي مع علمه بأنّه متناه، يدرك هذه الحقيقة وهي أن هذا التصور عن اللانهائي قد أودعه فينا كائن لامتناه . إن الله هو الوحيد الذي يملك صفات كائن اللامتناهي. فوجوده إذن، يقيني[1] .

**نستنتج ممّا تقدّم ؛ اخي الطالب؛ أن أنصار المذهب العقلاني يؤكدون على أن العقل هو التصورات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة، وأساس جميع معارفنا وهو أساس التثبّت من صحتها وحقيقتها ويقينها.**

**ب .** والعقل يتضمن **الحقائق المحدوسة ؛ أي التي ندركها_مباشرة دون استدلال عقلي ولا برهان منطقي ؛ التي** توفِّر المنطلق الصلب والأول للمعرفة. ويُثبت **الاختبارُ صدقَ** هذه المسلمة في ثلاث نقاط، وذلك :

*** لتوفرنا** على **الحدس** أولا وقبل كل شيء.

لقد تأكد العقلانيون من أن الحقائق الأولى، (الأوليات الرياضية والمنطقية) تنشأ وتدرك بالعقل عن طريق **الحدس**[2] Intuition، ومن غير مقدمات؛ والحدس نور فطري غريزي يمكِّن العقل من إدراك فكرةٍ ما، دفعة واحدة ، وليس على مراحل . **فالحدس إدراك مباشر غير مسبوق بمقدمات تسلم إليه.** فالكلّ أكبر من جزئه ؛ وهو **لا يقوم على اختبار تجريبي، ولا تأمل عقلي،** لأن

---

[1] . تأملات، التأمل 3؛ وحتى في حالة شكّه، شك في كل شيء ما عدا أنه يفكر وبأن الله موجود.

[2] . سرعة انتقال الذهن من المبادئ إلى المطالب تعريفات الجرجاني، والمقصود **بالمطالب النتائج** . و "هي تمثل المبادئ المرتبة في النفس دفعة واحدة من غير قصد واختبار سواء بعد طلب أو لا، فيحصل المطلوب ". تعريفات التهاوني.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

هذا **الإدراك من الوضوح بحيث يمتنع معه كل شك**، لأنّه لا يقوم على شهادة الحس، ولا على أحكام الخيال الخدّاع؛ **بل هو عمل عقلي محض**، بهُ تدرك الأفكار والطبائع البسيطة التي لا تنقسم إلى أجزاء، كالوجود والوحدة والزمان والمكان والامتداد.

والأفكار عند زعيم العقلانيين " ديكارت " **ثلاثة أصناف** :

1 . **صنف عرضي** : ومرجعه إلى الطبيعة الخارجية، كفكرة الشمس والحرارة والألوان والطعوم، وهذه أفكار غامضة، لا تشكّل معرفةً صحيحةً؛

2 . **صنف مصطنع** : ركَّبه العقل من الأفكار العرضية السالفة، كصورة عرائس البحر الفاتنات والخيل ذوات الأجنحة الطائرة، وهذه **أفكار مركبة**؛

3 . و**صنف فطري** : مثل فكرة اللانهايَة، وفكرة الكمال، ليس مستفادا من الحواس[1]، ولأنّه لا يوجد شيىء في الواقع يُوصف بأنّه كامل.

* **لبلوغنا الحقائق** الخالدة بمنٍّ من الله : إن بعض القضايا التي يحكم بها العقل، قضايا لا يتطرق إليها الشك، وتصدق في كل زمان ومكان. ومن المنطلقات العقلية الأساسية والصلبة التي فرضت نفسها عليه ولم يستطع أن يشك فيها إطلاقا، فكرتا اللانهائي ووجود الله. لا يمكن أن يأتي تصور اللانهائي من كائن غير كامل: وهذا الكائن غير الكامل لا يعني سوى هذه المادة المفكرة التي تشك والتي ترغب. فهذه الفكرة لم يَبنِها فكرنا انطلاقا من عناصر التجربة (حيث إن كل سبب خارجي هو متناه ومحدود) ولا إبداعا مستقلا عن عقولنا الناقصة. يقول "ديكارت" في التأمل الثالث (الفقرة 21) : " **أجد أن فكرة اللامتناهي سابقة لدي لفكرة المتناهي أي أن إدراك الله سابق لإدراك نفسي إذ كيف لي أن أعرف**

[1] . ديكارت: التأملات، التأمل الثالث . الفقرة 9.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

**أني أشك وأرغب . أي أن شيئا ينقصني وأنني لست كاملا تمام الكمال . إذا لم تكن لدي أية فكرة عن وجود أكمل من وجودي، عرفت بالقياس إليه، ما في طبيعتي من عيوب"؟ وعليه، فبِما أن لكلِّ أثرٍ سببا وأنّ السبب ليس أقل واقعية من الأثر، وجب أن تكون فكرة اللانهائي أثرا لكائن كامل يكون هو الصانع الحقيقي. إذن الله موجود، والفكرة التي أملكها عن اللانهائي هي أثر من آثار صنعه. إنّه أثر الخالق في مخلوقه. وهذه الفكرة معطاة لنا بالفطرة : ففي الوقت الذي أفكر، فإنّ الوضوح والبداهة في مَلَكتي، يجعلاني أدرك أن الله موجود. "وأفكارنا الفطرية تأتي من ملكتنا الفكرية نفسها". فهذه الفكرة إذن، لا يمكن أن تكون صادرة إلاّ عن الله الذي طبعها في أنفسنا منذ النشأة الأولى".**

ويصل هنا، "ديكارت" إلى الله عن طريق **الحدس من الداخل**، ولم يشعر بالحاجة إلى شهادةٍ من التجربة الخارجية، لأن الله لا يحتاج إلى ضمان العالم الخارجي؛ ولكن على العكس، إن العالم الخارجي هو الذي يكون بشهادة من الله، وإلاّ تحطّم وانقلب أضغاث أحلام[1]. من أجل هذا رفض "ديكارت" أن يتسلل إلى الله عن طريق العالم، بل رأى عكس ذلك، أن معرفتنا للعالم هي في بدءٍ من معرفتنا لله. فبدل أن يأخذ الأرض مصعدا إلى السماء، أخذ السماء منحدرا إلى الأرض. فالله عند الأقدمين من وراء الكون؛ والكون عند "ديكارت" من وراء الله. وقد استخرج "ديكارت" من فكرة الكمال اللامتناهيِّ التي عثر عليها في "أنا أفكر، إذن أنا موجود"، براهينَ ثلاثةً على وجود الله، المبدعِ لجميع الأشياء في الكون[2].

---

[1] . كمال يوسف الحاج، ديكارت أبو الفلسفة الحديثة، ص .(130-132).

[2] . ويفضل أهل التفكير الإشادةَ في هذا السياق، بمقولة "مالبرنش" المشهورة : " أنا أفكر، إذن الله موجود".

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

وعندما ضمن "ديكارت" وجود الله، ارتأى أنّه الآن يستطيع امتلاك يقين متين لتأسيس معارفنا. لكن الإنسان غير الكامل يخطئ ويمكن أن يُحمل على الخطأ، والكائن الكامل لا يخدع لأن الخداع يشارك في النقص ولا يمكننا أن نصف به الله دون تناقض. إذا كان الله موجودا، وأنني بالأفكار الفطرية أشارك في كماله، فإن الخطأ عندئذ، ليس نتيجة لنقص أنطولوجي (وجودي)، وإنما يأتي فقط، من قصور ملكاتي. ولأننا نملك فكرة الكمال، نستطيع الاعتراف بلاكمالنا. فاللاّكمال الذاتي .؛ أي لاكمال الكائن المفكر. يفترض الكمال الموضوعي الأنطولوجي أو يفترض وجود الله. ونتيجةُ البحث هذا عن الأسس الأولى، تصل بنا إلى إدخال الله في نظرية المعرفة، مع التساؤل عما مجال هذه المعرفة؟ **إنّها معرفة نظام وقوانين الطبيعة بمشاركتنا في الكمال الإلهي. وما نعرفه في النهاية، هو حقائق خالدة أسستها الإرادة الربانية الثابتة والمطلقة.** لذلك مَن يطلب الحقيقة عليه أن يستعين بالله واهب العقل دون سواه.

* **لتقدم الحقائق** الخالدة كمبدأ لا مبدأ قبله: كانت الفلسفة الأوروبية في القرن السابع عشر، يسودها الاعتقاد **بوجود هذه الأفكار الفطرية التي تمثل حقائق بسيطة مركبة، وحقائق موضوعية غير ذاتية**، كفكرة الله وفكرة النفس وفكرة الامتداد ونحوها؛ وهي مبادئ ليست من ورائها مبادئ، وخاصة منها فكرة وجود الله. فهي تدرك بالحدس، ومن غير مقدمات. ومنها، يستنبط العقل النتائج التي تلزم عنها، وبهذا، تتألف المعرفة اليقينية التي تصدق في كل زمان ومكان.

يعتقد "ديكارت" أن كل إنسان يحمل معه منذ الولادة، عددا من المفاهيم التي منَّ الله بها عليه : مفهوم الله بالذات، فكرة الأشياء الرياضية المختلفة، فكرة عددٍ من المبادئ الأولية المتحكمة بالعلوم. ومثل هذه **المبادئ**

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

**العقلية، تشبه في نظرهم، قوانين المنطق من حيث إنّها موضوعية عامة شاملة، بالإضافة إلى أنها ثابتة غير متغيرة.**

ج - ومن مميزات هذه **الحقائق** التي يحكم بها العقل، **أنّها كلية صادقة صدقا ضروريا**، وسابقة لكل تجربة، **لا يتطرق إليها الشك**. ومنها يستنبط العقل النتائج التي تلزم عنها، وبهذا تتشكل المعرفة اليقينية التي تصدق في كل زمان ومكان. وصدق هذه المسلمة، يتجلى في نقطتين، وذلك :

* **لأن هذه الحقائق كلية صادقة** : تتميز هذه المعرفة، بالضرورة والشمول؛ ويُقصد بذلك **انسجام القضايا المعرفية تلقائيا مع متطلبات العقل المنطقية**، وتعميمها على كل العقول البشرية في كل زمان ومكان. وهي قضايا، لا يمكن أن تصدق مرة، وتكذب أخرى، كقولك : **إذا كانت (أ) أكبر من (ب) و (ب) أكبر من (ح)، كانت (أ) أكبر من (ح)**. هذا **حكم صادق دوما**. ومثل هذا، **يُقال في قوانين ومبادئ المنطق، وقضايا الرياضيات البديهية**. هذا، **وتُوَفِّر الرياضياتُ المنهجَ الملائمَ للمسعى العقلاني من حيث إنها تشكِّل النموذج المثالي لكل العلوم**، لأنّها تطرح المشاكل طرحا واضحا وبيّنا، وتملك المفاهيم والمبادئ التي بواسطتها يمكن اكتشاف بعض الحقائق العالمية والبديهية واستنتاج مبادئ قبلية وغير مردودة.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

**إنّ بعض القضايا التي يَحْكم بها العقل، قضايا كلّية صادقة صدقا ضروريا، لا يتطرق إليها الشك، ويعتبرون ذلك، دليلا قاطعا على أنّها من الأوليات العقلية البديهية. إنّ هذه الأوليات أو البديهيات، حقائق واضحة بذاتها، ومن ثمة، كانت صادقة بالضرورة، في كل زمان ومكان. ومن ذلك أيضا، مبدأ السبب الكافي، وهو ما يتوصل به بصورة قبلية إلى تعليل وجود الشيء أو عدم وجوده، أو إلى تفسير كونه على هذه الحالة أو غيرها؛ أي لكل حادثة سبب جعلها تحدث بهذا الشكل دون غيره.**

* **ومن هذه الحقائق، يستنبط** العقل النتائج وهي تصدق في كل " زمان ومكان " : إن اليقين الملحوظ في العلوم الصورية . كالرياضيات والمنطق . هو **المثل الأعلى لليقين** الذي ينشدونه في كلّ فروع المعرفة البشرية. وهذا اليقين نفتقده في المعرفة التي تقوم على معطيات الحس والتجربة. ولهذا، **اتسع اعتماد العقليين على المنهج_الاستنتاجي، في شتى فروع المعرفة البشرية، ممَّا جعلهم يصطنعون منهج الاستنتاج حتى في أبحاث علوم الطبيعة.** ولمّا استقلت العلوم الطبيعية بمناهجها التجريبية، قَوِيَ اعتقادهم في ضرورة استخدام المنهج الاستنتاجي في العلوم الإنسانية والمعيارية، عساهم بهذا، أن يبلغوا بها، مثَل اليقين الرياضي دقة وضبطا.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

**سجّل معي ؛ أخي الطالب؛ ما يلي :**

**[القوة العاقلة في الإنسان، هي قوة فطرية لدى جميع الناس، وهي الأصل الأول الذي يَصدر عنه، كلّ علم حقيقي، وهو علم يتصف بصفة الصدق المطلق، بحكم ضرورته وشموليته. والمعرفة الأولية أو البديهية القبلية، يراد بها في هذا المجال، الحقائق التي تقوم في كل عقل، منذ ولادة الإنسان، وتكون واضحة بذاتها، ومن ثمة، تكون حتما يقينية، أو يراد بها مبادئ المعرفة التي لا تجيء اكتسابا، فلا تنشأ عن تجربة، ولا تكون من صنع العقل في تعميماته؛ إنها موجودة في العقل بالقوة، وجودا سابقا ومستقلا عن كل تجربة.**

**إن العلم طريق إلى الحقيقة، وميزان الحقيقة الوضوح أو البداهة؛ والعقل هو منطق الميزان.أمّا الاستنتاج فهو الذي يدرك الطبائع المركبة، ويجيء دوره بعد الحدس، وهو عمل عقلي، يمكّننا من أن نستخلص من شيءٍ نعرفه معرفةً يقينيةً، نتائجَ تلزم عنها؛ وهو يتمّ على خطوات، بحركة ذهنية، بها نستنتج شيئا مجهولا من شيء معلوم؛ وبِهذين العمليتين (الحدس والاستدلال)، نتوصل إلى المعرفة اليقينية التي تصدق مهما تغيّرت الحدود الزمانية والمكانية. وعلى هذا السبيل، سار الديكارتيون من أمثال " سبينوزا" و" مالبرانش" و"لايبنز"، وغيرهم من أتباع ديكارت في القرن السابع عشر. وتأكدوا من أن الحقائق الأولى، تنشأ وتُدرك بالعقل عن طريق الحدس، مع بعض الاختلاف فيما بينهم بين التأييد والتحفظ فيما يتعلق بميدان الوحي ].**

**د .** وهذه الحقائق أو المبادئ العقلية الكلية ليست حكرا على المعرفة فقط ؛ فمنها يستمد **الفيلسوف الأخلاقي قواعده الأولى**، ومنها يستلهم المرشدون

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

والمربون والناس العاديون مقاصدهم وغاياتهم السلوكية، دون أدنى بحثٍ عن برهان أو دليل لأنها **واضحة.**

وفي الأخلاق كذلك، يبقى العقل دائما هو المصدر الأول لمبادئها، وهي مبادئ لا تحتاج بدورها، إلى برهان، **لأن ما في القوانين الخلقية من قوة موجبة للعمل، أو ما تتصف به من عموم وشمول** ؛ كأن تقول : "عليك بالصدق و الأمانة" ؛ وهذا يحملنا إلى اعتبار هذه **القوانين، أمورا صادرة مباشرة عن طبيعة العقل العملي**؛ وكذلك فالأخلاقيون؛ من أصحاب **مذهب البديهة** ؛ ينظرون إلى أن المبادئ الخلقية تستغني في إدراكها أو تعميمها عن البرهان. **إن الأخلاقية في رأيهم، حقيقة موضوعية مستقلة عن كل إرادة إنسانية أو إلهية، لأن في طبيعة الفعل الخيِّر ما يجعله خيرا وليس في وسع الإنسان . ولا في وسع الله . أن يجعله شرا. وإلى ما يشبه هذا، ذهب قبلهم المعتزلة في الإسلام.**

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

وباختصار؛ أيّها المتعلِّم ؛ إذا كان الإنسان يتميز عن غيره من الكائنات الأخرى، بالعقل، فلأن في هذا العقل سرّا؛ وسرّه أنه يحدس[1] الحقائق البديهية الثابتة فيؤمن بها، ويجعلها وحدها منطلقا صلبا لاكتشاف الحقيقة؛ فهو يجمع بين الحدس والاستدلال. فالحدس يوفر له الأرضية الصالحة المعلومة التي لا ينجح الشك في زعزعتها، والاستدلال يتقدم فيها إلى اكتشاف المجهول عن طريق الآليات العقلية ( شأن العلوم الرياضية والمنطقية). وفي بحثه وسعيه عن الحقيقة، فإنّه لا يفرق في مجالات البحث بين موضوعات معرفية وأخرى أخلاقية وميتافيزيقية ولاهوتية مع احترام خصوصيات كل موضوع. فالبناء العقلاني والنسقي الذي يقيمه يقتضي أن تكون كلُّ هذه الموضوعات منسجمةً من حيث إن مصدرها ومنهلها ومنطقها وفهمنا لها، يؤول كلّ ذلك، في بداية المطاف وفي نهايته إلى العقل وحده. وهذا النسق نجده متكاملا في كل المذاهب العقلية على اختلافها، بداية من "أرسطو" المعلّم الأول إلى يومنا هذا.

[1] . الحدس Intuition وهو القدرة على إدراك الحقائق مباشرة دون استخدام أيّ استدلال منطقي عقلي ولا تجريبي.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

## II – المذهب التجريبي أو مذهب الحسيين :

**أولا : مدخل إلى المذهب التجريبي** : في مجاليْ المعرفة والأخلاق.

**تذكر ؛ أيّها المتعلِّم :**

«... في المرّة الأخيرة حدثتك عن "ديكارت"، وعن "سبينوزا"، اللذين يشتركان في كونهما « عقلانيين ».

– والعقلاني، هو الذي يؤمن بسلطة العقل.

– أجل، العقلاني يعتقد أنّ العقل أساس المعرفة، كما يعتقد بأنّ الإنسان يولد ومعه بعض الأفكار(الأفكار الفطرية)، التي تكون حاضرة في الوعي، سابقة لكلّ تجربة. وكلّما كانت الفكرة أوضح، كلّما تطابقت أكثر مع الواقع. هل تذكرين أن "ديكارت" استنتج من فكرة الكائن الكامل أن الله موجود بالضرورة؟

– هل تظن أنّني أنسى بهذه السرعة ؟

– إذن، فإنّ هذا التقليد العقلاني، سيتعرّض **للنقض** ابتداءً من القرن الثامن عشر، على يد أنصار المذهب « التجريبي » الذين كانوا يتبنّون وجهة نظر أخرى[1]» . سنتعرّف عليها من خلال معالجتنا لمسلّمات المذهب التجريبي ومناقشتها.

---

[1] . "عالم صوفي" لـ : جوستاين غاردر، ترجمة حياة الحويك عطية، ص273.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

جون لوك 1632 - 1704

بدأت التجريبية (كنسق معرفي) في مفهومها التقليدي مع فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر، أمثال **بيكون**، و**لوك**، و**هيوم**؛ واستمرت في مفهومها الجديد مع فلاسفة الوضعية المنطقية والنفعيين في القرنين التاسع عشر والعشرين. وتجدر الإشارة إلى أنّها في مفهومها الأوّل، اتجه الاهتمام نحو **نظرية المعرفة**، واتسع الانشغال في مفهومها الثاني، إلى كلّ حقول التفكير، كالأخلاق والتشريع فضلا عن المعرفة؛ وهذه النسقية تحكم كلّ مذهبٍ فلسفي؛ **إلاّ أن الأمر الذي يهمنا في هذا المقام هو الحديث عن المذهب من حيث أُسسه لا من حيث ممثلوه.**

## ثانيا : مسلمات المذهب التجريبي

إنّها في الحقيقة مسلمة واحدة . وهي الأساسية . ذات مظهرين. أما الأساسية، فهي أن **المصدر الجوهري الأسبق لكل أنواع المعرفة والعمل، هو التجربة**، وهي مسلمة تتفرع إلى **جزأين** : **الأول** نقدي يتم فيه تفنيد وإبطال المذهب العقلاني من أصوله، و**الثاني** تأسيسي وبنائي، يتمّ فيه بناء المذهب التجريبي، وهما :


جميع الحقوق محفوظة ©

**1) العقل لا يستطيع أن ينشئ بالفطرة (ولا يملك بالفطرة شيئا)، المعاني والتصورات. وليست له القدرة على إضفاء صفة الصدق على ما يبتدعه من معرفة ؛**

**2) العلم في كلّ صُوَرِهِ، يرجع إلى التجربة.**

## ثالثا : . اختبار المسلمات

**1 . لا يستطيع العقل أن يبتدع بالفطرة، المعاني والتصورات الكلية. وليست له القدرة على إضفاء صفة الصدق واليقين على ما يكوّنه وينشئه من معارف.** ومن الحجج التي يبرّر بها التجريبيون مزاعم وانزلاقات العقلانيين، ما يأتي :

أ . **لقد رفض التجريبيون** التسليم بالأفكار الفطرية الموروثة، والمبادئ العقلية البديهية الواضحة، والقواعد الخلقية الأولى التي لا تأتي اكتسابا؛ وأنكروا الحدس الذي يزعم أهله، أنهم يدركون به الأوليات الرياضية والمنطقية. ألا **تلاحظ ؛ أخي الطالب ؛ أنّهم بهذا قد فنّدوا و أبطلوا كلّ ما أسّس عليه العقلانيون فلسفتهم**؛ واعتبروها **مجرد أوهام من وحي الخيال لا أكثر** ؛ لِنَرَ ما يقدمونه من حججٍ لتبرير موقفهم، تابع ما يلي :

* **وذلك** لأن المرء يكون قبل التجربة، **عبارة عن صفحة بيضاء**[1] Table rase ، ليس فيها نقش سابق للتجربة ؛ فهولا يعرف شيئا ويبدأ في اكتشاف العالم الخارجي عن طريق الحواس. فبأيّ وسيلة سحرية هاته، يتمكن من إدراك الأفكار العقلية الأولية بصورة مباشرة لا واسطة بينهما؟ وهل يعقل الحديث

[1] . ألا تلاحظ أنهم استبدلوا مسلمة بأخرى ؟ وهي مسلمة ( مصادرة ) يمكن قبولها أو رفضها أيضا.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

عن أفكار جاهزة قَبْلِية يحملها كلّ إنسان بالفطرة دون انتظار تأثير العالم الخارجي عن طريق الحواس؟ **وإذا سلّمنا أننا ننطلق من عالَم الأشياء، فإنّ هذا يقتضي رفض كل منطلق آخر غيره سواء كان حدسا أو إلهاما.**

* **ولأننا** نعرف الملموس قبل المجرد والخاص قبل العام. ولا نصل إلى المجرد إلاّ انطلاقا من الملموس. يقول الفيلسوف الانجليزي " لوك Locke 1632- 1704 " : "إن الأبيض ليس الأسود، واللذة ليست الألم؛ فلا يعقل القول بأننا نسلم بهذه القضايا الملموسة والجزئية، لأنّنا نسلم بقضايا أخرى مجردة وعامة هي بمثابة المبدأ بالنسبة إلى القضايا الأولى **ومعنى ذلك أن التمييز بين معطيات التجربة لا يخضع لأي مبدأ خارج التجربة**".

* **ولأن** المبادئ لا يمكن أن تكون فطرية فيما يرى لوك[1]، إذا كانت الألفاظ المكوّنة لها غير فطرية. فالمبادئ القائلة مثلا، إن " لكلّ واقعة علّة" أو "لا يمكن للشيء أن يكون هو ذاته وضده في نفس الوقت، ومن نفس الوجهة"، لا يسعها . هي وأمثالها . أن تكون فطرية **إذا كنّا لا نملك فكرة فطرية عن كلمتي واقعة وشيء، ونستنتج من ذلك أنّه إذا كان الفكر غير مستقلٍّ عن الألفاظ التي يستعين بها للتعبير عن نفسه، فذلك يعني أننا ندرك معاني الكلمات بالفطرة أيضا، وهذا ما لا يقبله التجريبيون.**

**ب . ورفضوا أن يكون العقل قادرا على الوصول إلى أيّ علمٍ يقيني ثابت بطريقة الفطرة، وما تجود به هذه الفطرة من أوليات وأفكار كلية؛**

---

[1] . ودعّمها بعده فلاسفة الوضعية المنطقية أو التجريبية.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

* **وذلك** لأن الأحكام العقلية تتغير بتغير الزمان والمكان، وتختلف باختلاف ظروف الأعمال ومجالات البحث. إن العقل لم يعد يُتصور كنظام ثابت من المبادئ المحددة قبليا، وإنما كواقع ليِّن وحركي. وما نعتبره جهدا عقلانيا، إنّما يتوقف كثيرا على السياق التاريخي الذي بُذل فيه، وعلى حالة المعارف وتطور تقنيات الملاحظة والتجريب[1]. ولهذا، فـ " **إن العلم يتقدم بالتجاوزات المتتابعة لأشكال عقلية فقدت صلاحيتها**". فالعقل ليس مستقلا عن الواقع فهناك جدل دائم بين الواقع والعقل، وهذا الأخير مطالب بتعديل وتكييف نفسه ؛ من حيث المبادىء والأحكام ؛ مع كلّ هذه التطورات، والدليل على ذلك ما وقع في العلم من ثورات معرفية في مجال المبادىء والأسس كفكرة الحتمية واللاحتمية والقانون ومبدأ السببية والغائية (في العلوم الفيزيائية والبيولوجية).

* **ولأنه لو صحّ وجود هذه المبادئ الكلية، والمعاني الفطرية القبلية، كما يعتقد "ديكارت" و "كانط" ، لتساوى في العلم بها، الناس في كل زمان ومكان**؛ لكننا نلاحظ أن مبدأ عدم التناقض أو الهوية أو غيرهما مما يظن أنه من المبادئ الفطرية، **لا يعرفه إلاّ قلّة من المثقفين، ويجهله الأطفال البدائيون أو كما يسمّيهم الأنثروبولوجيون بأصحاب الذهنية "ما قبل المنطقية" Prélogique**. وأمّا المبادئ العملية . سواء كانت خلقية أو قانونية وتشريعية . فيختلف الناس في أمرها، باختلاف الزمان والمكان. **إن القيم الأخلاقية إذا كانت في جوهرها واحدة، فإنّها في مادتها نسبية : فما هو عدل أو خير بالقياس إلى هذا، ليس بالضرورة كذلك بالقياس إلى ذلك**. ويمكن تعميم هذه القاعدة الواقعية على أشخاص وشعوب وحضارات باختلاف الحدود الزمانية والمكانية.

---

[1] . للتفصيل، انظر: غاستون باشلار، الروح العلمية، ترجمة عادل العوّا.

جميع الحقوق محفوظة ©
http://www.onefd.edu.dz

**ماذا تستنتج ؛ أيها المتعلّم ؛ من كلّ هذا ؟**

**أستنتج** أن أنصار النزعة التجريبية حاولوا إبطال وتفنيد كلّ مسلمات المذهب العقلي، في مجالَيْ **المعرفة والعمل**، فرفضوا التسليم بقدرة العقل على ابتداع معارف وأحكام ومعاني كلية، كما رفضوا التسليم بوجود أفكار عقلية سابقة لكل تجربة، كما رفضوا أيضا المبدأ الصوري كمعيار للحكم الأخلاقي، فحتى الأخلاق بالنسبة لهم تخضع لحكم التجربة.

**2 . العلم في كل صوره، يرجع إلى التجربة.**

**أ . نشأت فكرة السببية نشوءًا طبيعيا عند الإنسان بسبب ما كان يلاحظه من تغير الأشياء.** فما انفك الشيء الواحد يتغير ويتبدل حالا بعد حال، حتى يأخذ العقل في التساؤل: أيكون ثمة علاقة بين الحموضة مثلا، التي حلت بالطعام وبين ارتفاع الحرارة في الهواء المحيط به؟ وإذا كان هناك علاقة بينهما فماذا تكون؟ يقول" لوك": " **ليس في العقل شيءٌ جديدٌ إلاّ وقد سبق وجوده في الحس أولا** ".

* **وذلك** لأن من فَقَدَ حاسة، فقد المعاني المتعلقة بها. فالليمونة مثلا، يصل إلينا لونها عن طريق البصر، ورائحتها عن طريق الشم وطعمها عن طريق الذوق وملمسها عن طريق اللمس؛ فلو تناول هذه الليمونة كفيف البصر يحيط بكل أعراضها وصفتها إلّا لونها. فالكفيف محروم من فكرة الألوان، والأصم ليس محروما من الأصوات فقط، بل من النطق وما يقتضيه من ألفاظ ومعان. فلولا الحواس لما كان للأشياء الخارجية وجود فضلا عن وجودها في العقل، **فَمَنْ فَقَدَ حاسة فقد علما.**

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

* **ولأن** مفهوم السببية يُستوحى من التجربة. فقد لاحظ الناس في جميع الأجيال والعصور، **أشياء معلولة، وأخرى عللا لها. وربطوا المعلولات بعللها؛ فأصبحت فكرة العلّة مقترنة بفكرة المعلول، اقتران المتضايفين الذين لا يفهم أحدهما، إلاّ بالإضافة إلى الآخر**. وهذه الرابطة القوية الدائمة التي **اكتسبت** بالتجربة، هي أساس ما نسميه بـ"**الضرورة**"، في مبدأ العِلِّية. ومعنى هذا، أن مبدأ العلِّية ضروري، لا بمعنى أن العقل بمحض فطرته، يدرك بداهته، ويقينه كما يقول العقلانيون، **بل لأن التجربة دعّمته وقوته وربطت بين طرفيه برباط قوي**. وبهذه الطريقة، يفسِّر "هيوم" و"ميل"، المبادئ الأخرى التي يدّعي العقلانيون أنها ضرورية يقينية.

يقول"هيوم[1]hume ": "**لا شيء من الأفكار"يستطيع أن يحقق لنفسه ظهورا في العقل ما لم يكن قد سبقته ومهدت له الطريق انطباعات مقابلة له**"[2]. ويقول أيضا، "العادة هي المرشد العظيم للحياة البشرية؛ فهذا المبدأ وحده هو الذي يجعل خبرتنا ذات نفع لنا، ويتيح لنا أن نتوقع في المستقبل سلسلة من الحوادث شبيهة بسلسلة الحوادث التي ظهرت فيما مضى؛ وبغير تأثير العادة نكون على جهل تام بكل أمر من أمور الواقع"[3]. فـ"**المبادىء هي مجرد عادات فكرية**".

إن "هيوم" **لا يعترف بوجود اقتران ضروري بين الظواهر لأن المشاهدة لا ترينا وجود قوّة خالقة تنتقل من العلة إلى المعلول**. فكل ما هنالك هو **أن الحوادث يتلو بعضها بعضا**. وليس بينها سوى تعاقبٍ ثابتٍ. وبذلك ينقل

---

[1]. دافيد هيوم (1711– 1776)؛ يجب التذكير بأنّه هو الأب الروحي للمذهب التجريبي.

[2]. رسالة في الطبيعة، عن زكي نجيب محمود، دافيد هيوم، ص . 181.

[3]. زكي نجيب محمود، نفس المصدر والصفحة.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

فكرة العلية من معانيها الأرسطية إلى معنى **التتابع المجرد بين السبب والمسبب** أي التتابع الذي لا يعني شيئا أكثر من أن **السبب سابق لمسببه** فيما دلّت عليه التجربة (العادة)، وقد كان يمكن من الناحية العقلية والنظرية، أن يجيء الترتيب على صورة أخرى[1] لكنه جاء هكذا. فنحن نشاهد كرة "البلياردو" تتحرك وتصدم كرة أخرى فتحركها. فإنّنا هنا، لم **نر أيّة قوة داخلية** أو خارجية انتقلت من الكرة الأولى إلى الكرة الثانية، بل كلّ ما حدث هو أن حركة الكرة الأولى **تلتها بعد الصدمة**، حركة الكرة الثانية. فاعتدنا القول : إن الحركة الأولى سبب والثانية مسبب[2] .

ويرجع الترابط بين الأفكار إلى **قانون تداعي المعاني**، **بالتشابه أو التجاور الزماني أو المكاني أو بالعلاقة العلّية**. وبهذا، فسّرت المبادئ المسلمة (Postulats) التي ظن العقليون أنها فطرية، وعامة تصدق في كل زمان ومكان. ومن ذلك، أنه اعتبر **مبدأ العليّة**، **مجرد عادة ذهنية**، تنشأ عند الناس، كلّما رأوا حادثتين مطردتي الوقوع أو **متتابعتين باستمرار**، ترتب على هذا عندهم، اعتقاد بأن اللاحق (أي النتيجة) **يتبع السابق** (العلّة)، ويتمثل هذا الاعتقاد في **ميل الإنسان إلى أن يتوقع حدوث لاحقٍ متى وقع سابقٌ عليه**. ولا يعقل أن تعرف

---

[1] . جائز و ممكن Contingent؛ أي كلّ ما نتصور إمكان وجوده أو عدم وجوده .

[2] . تجدر الإشارة إلى أنّه إذا قلنا بأن الحرارة تسبق تمدّد المعادن، فنحن هنا نربط بين الحرارة والتمدد بشكل سبب ومسبَّب لفائدة عملية، وهي الحصول على التمدّد. أمّا العلم الحديث، فإنّه لا يقصد إلى أي الظواهر سابق وأيها لاحق، وإنما يقصد إلى القانون وهو تفسير حتمي للظواهر أو تعبير عن علاقات ثابتة بين الظواهر بمتحولات وتوابع. وعندما يتمكن العلم من تقدير هذه المتحولات ومن معرفة نسبتها إلى بعضها، يضفي على العلاقات التي تحكم الظواهر صيغة كمية رياضية. (ج. بوقلي حسن، قضايا فلسفية، ص . 469).

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

رابطة العلية بالاستدلال العقلي، إذ لا يمكن استنتاج معنى المعلول من معنى العلة؛ وهل كان في وسع امرئ أن يستنتج بعقله من نظرته إلى الماء أنه أصل الحياة ؟ وهو موقف شبيه بموقف "أبي حامد الغزالي "من فكرة العلّية حيث يقول : " **الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببا وبين ما يعتقد مسبّبا ليس ضروريا عندنا ...، لا إثبات أحدهما متضمنا لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمنا لنفي الآخر**".

* **ولأن** الأفكار تتبع آثار الحواس. ولا فرق في ذلك، بين مبدأ التعليل وأي قانون استقرائي آخر. يذهب "هيوم" إلى أن الفكرة ليست سوى " نسخة من انطباع مماثل" بحيث "لم تتعدَّ القدرة الخلاّقة التي يقرّ بوجودها أهل العقل، أكثر من أن تكون ملكة تتولى عملية تركيب وتخفيف المواد التي توفرها لنا الحواس والتجربة". وأنه من "الحادثة – السبب" بحكم وجودها، **يستحيل استنتاج قبليا أيّ أثر منها**. فمن فكرة برودة الماء، لا يمكنا استخلاص فكرة تصلبه أو تحوّله إلى ثلج. وبالفعل، فإنه إذا تأكّدت لنا علاقةٌ سببية، فذلك يتم بين ظواهر متنافرة ومنفصلة عقليا. ومن هنا وجب استبعاد الفكرة الميتافيزيقية الساعية إلى الوقوف على مصدر السببية في عقل الكائن ذاته.

يميّز "هيوم" كما ذهب إليه "لوك" من قبله، بين نوعين من **الأفكار** :

1 . **الأفكار المركّبة** : هي الأفكار التي ينتجها الفكر البشري نفسه عن طريق ترابط الأفكار البسيطة. 2 . **الأفكار البسيطة** : هي على العكس من ذلك، الأفكار التي لا يصنعها الفكر والتي لا يحدسها، وإنّما هي تلك التي يجب بالضرورة أن يستقبلها من التجربة. وبصورة عكسية **الآثار الحسية هي المرجع الأخير الذي نقيس به صحة الأفكار وحقيقتها؛ فإذا استطعنا أن نُرجع الفكرة إلى أصلها الحسّي كانت صادقة، وإلاّ فهي وَهْمٌ واختلاق من العقل**؛ وليس لها أصل مما تلقته حواسنا من

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

آثار. حقا إن هناك أفكارا مركبة لا تماثل الآثار الحسية، ولكن لو حلّلناها ألفيناها مكوّنة من عدد من الأفكار البسيطة التي تنشأ من الحواس مباشرة، وعلى ذلك تكون تلك الأفكار المركّبة صحيحة. وما دامت الأفكار تتبع آثار الحواس، وهذه الآثار الحسية لا تكون إلاّ في تجارب الحياة، فليس ثمة إذن، أفكار مفطور عليها العقل منذ ولادته على الإطلاق.

**ب .** إن العلم بجميع أنواعه، لا يرجع فقط، إلى التجربة، بل ويتسع في كل صوره، كلّما اتسعت تجارب الإنسان.

*** لأن جميع أفكارنا، تتطور وتتسع مع ما نكتسبه من خبرة، في حياتنا اليومية.** لقد وقع مبدأ الحتمية في أزمة حقيقية وعلمية تصدى لها أكثر الفلاسفة المحدثون. ويقول "لويس دو بروي" في كتابه "المادة والضوء" تحت عنوان أزمة الحتمية : "يعتقد الناظر إلى الطبيعة وإلى السماء أن كل شيء يسير بانتظام، وبصورة ثابتة لا تتغير، وكأنّ القبة السماوية وبكل ما فيها عبارة عن ساعة دقيقة، فكل ظاهرة طبيعية فيها لا بد لها من نظام تسير عليه...، ولكن قد اتضح بعد دراسة نظرية الكوانتا[1] Quanta(الكم) . التي تفسّر المادة على أنّها جزئيات مرتبطة بموجة . وظهور نسب اللاحتمية والارتياب التي وضعها "هيزنبرغ"، والنظرية النسبية التي وضعها العلاّمة "**أينشتاين**"، بأن الحتمية ليست دقيقة وأن جميع القوانين التي نعرفها ليست دقيقة أيضا". ومهما كانت هذه النسبة في عدم الدقة صغيرة جدًّا، **فإن القول بأن القوانين مطلقة . فطرية كانت أو مسلَّم بها . قول لا ينطبق مع الواقع المتغيّر.**

---

[1] . مصطلح وضعه العالم الفيزيائي ماكس بلانك Max Planck .

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

**إن مبادئ العقل لما تكتمل بعد ولما تستقر على شكل نهائي. إنّها لا تزال غير كلّية، ولا يعتقد كل الناس بصحتها. وإنّها في تطوّر مستمر بطيء جدا لتصبح عالمية وثابتة[1] .**

* **ولأنه** أمام ما تؤكده التجربة العادية والتجربة العلمية، تبقى المبادئ العقلية غير قابلة للبرهان ليس فقط، في مذهب العقلانيين باسم البداهة والفطرة، ولكن أيضا، في مذهب التجريبيين باسم أسبقية العالم الخارجي لعالم الأفكار وتأثيره على الحواس، ومسؤوليته في إنشاء التصورات العقلية. هذا، لما كانت التصورات الماورائية الميتافيزيقية، وما تنتجه من فلسفات، **تشوِّش حقيقة الأشياء، وتموّه مصدرها الأول، أقام التجريبيون المحدثون والمعاصرون العلم على التجربة والرياضيات**؛ فبلغ إنكار "هيوم" للتفكير الميتافيزيقي، حدًّا بعيدا إلى درجة أنّه قال بضرورة إحراق كل كتاب، لا يقوم على الرياضيات أو التجربة.

* **ولأنه** أيضا، وفي هذا السياق، أخذ أهل **الوضعية المنطقية** على أنفسهم **ألا يعترفوا بغير الواقع المحسوس الذي يمكن إخضاعه لمناهج الملاحظة والتجربة**. واهتموا بالفكر باعتباره لغة يتحتم عليها أن تتطبق مع الواقع الحسي وواقع الأحكام المنطقية. وقرروا أن " **لا فكر ولا تفكير وكل ما هناك ألفاظ". وكل لفظ لا يشير إلى شيء محسوس يمكن التثبت منه بالتجربة، يبقى عديم المعنى فلا يوصف بالصدق ولا بالكذب.**

إن اللغة ألفاظ خدّاعة فارغة من المعنى ولكنها تثير عند الذين يستخدمونها مشاكل لا وجود لها إلاّ في أذهانهم، فيضطرهم توهّم وجودها إلى بذل

---

[1] . وفيق العظمة، علم النفس الحديث، ص . 302.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

الجهد العنيف في سبيل حلها[1]. **إن أحكام المنطق الصحيح إنّما هو الحقائق وقوانينها والظواهر والعلاقات الثابتة التي تربط بعضها بالبعض الآخر. أما البحث العقلي في موضوع المطلق فلا طائل تحته.**

وباختصار، أخي الطالب ؛ يمكن القول **بأن مصدر المعارف العلمية أو الأخلاقية التي يحملها الإنسان، إنّما هو التجربة لدى الفلاسفة التجريبيين أو الحسيين**؛ وذلك، لأنّ نشاط العقل بأكمله، ينطلق من العالم الخارجي فضلا عن حياة الناس ومشاكلها الطبيعية. وإذا كان كلُّ ذلك يشكِّل المنبع الأساسي الأوّل الذي ينهل منه الإنسان معطياته الأولى، فذلك، لأنّه يملك القدرات العقلية المؤهّلة لذلك. فالأمر الذي آل إليه، المذهب التجريبي، هو **أن التجربة أولا، ثم العقل، بعد ذلك**. وهكذا، تتأكّد مسلمات المذهب في القول بأن العقل : **لا يستطيع أن يبتدع بالفطرة المعاني والتصورات. وليست له القدرة على خلع صفة الصدق على ما يبتدعه من معرفة، وأن العلم في كل صوره، يرجع في النهاية، إلى التجربة.**

[1] . توفيق الطويل، أسس الفلسفة، ط. 5، ص . 270.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

## III . الفلسفة النقدية بين العقلانيين والتجريبيين :

**كانط** ( 1724 – 1804)

استطاع " **كانط** " بتصوّره الخاص للعقل أن يتجاوز مشكلة التعارض بين العقلانيين والتجريبيين، في مجاليْ **المعرفة** و**الأخلاق**.

### أولا : في المجال المعرفي . ماذا يمكنني أن أعرف ؟

يرى "كانط" **أنّنا في حاجة إلى حقائق و مبادئ كلّية تحمل طابع الضرورة الداخلية بقطع النظر عن العالم الخارجي**؛ و**حتى تبقى ضرورية ومطلقة في ذاتها**، **وجب أن تكون مستقلّة عن التجربة**. فالمعرفة الرياضية مثلا، ضرورية تؤكدها التجربة اليوم وفي المستقبل. ولهذا فليس من قبيل الممكن الاعتقاد طيلة حياتنا بأن (1+1) يمكن أن يكون غير (2) لأن هذه حقيقة سابقة لعالم التجربة وهو عالم لا يعطينا شيئا سوى أحاسيس منفصلة وحوادث متفرقة قد يطرأ عليها تغيرفي تعاقبها مستقبليا. ولكن العقل من جهة أخرى، عضو نشيط يحوِّل الإحساسات المادية إلى أفكار، والوقائع المشتتة إلى وحدة فكرية محكمة[1].

---

[1] . قصة الفلسفة لـ "ول ديورانت"، ترجمة فتح الله المشعشع ،: ص . 335.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

إنّ الآثار الحسية هي **المادة الخام التي تبدأ بها التجربة والحافز على تنشيط العقل**. إنّها لم تبلغ حدّ المعرفة لأنها منفصلة مفرقة. ثم إنّنا لا نختار ونصطفي مما يصلنا من إحساسات إلاّ ما يُمكن تحويله إلى إدراكات حسية تتناسب مع إرادتنا في تلك اللحظة. فإذا كنا نريد الجمع فإن الرقم (3) والرقم (7) يتحوّلان إلى (10)، وإذا كنّا نريد الضرب تحولا إلى (21) مع العلم بأن الإحساس الذي يصلنا من الرقمين هو واحد كلتا العمليتين: الجمع والضرب؛ **وبأن الغرض الذي كنّا نريده هو الذي تغير**.

إن الإحساسات والأفكار فيما يقول "كانط"، هي خدم لنا تنتظر دعوتنا ولا تأتي إلى أذهاننا إلا إذا احتجنا إليها[1].إن النظام والوحدة لم يأتيا من الأشياء نفسها. وفي سياق تقريب المصدَرين المعرفيين، يقول"كانط": " **إن الإدراكات الحسية بِغَيْرِ المدركات العقلية عمياء**"، **وأن قوانين الفكر هي قوانين الأشياء أيضا**[2].

**إن عقل الإنسان ليس لوحًا جامدًا من الشمع تكتب عليه الأحاسيسُ؛ والتجربةُ إرادتها المطلقة والمتقلبة وليس سلسلة من الحالات العقلية. إنّه عضو نشيط يسبك وينسّق الإحساسات إلى أفكار،عضو يحوِّل ضروب التجربة الكثيرة المشوشة وغير المنظمة إلى وحدةٍ من الفكر المنظّم المرتّب.**

---

[1] . ويل ديورانت : المصدر السابق، ص . 338.

[2] . ويل ديورانت : المصدر السابق، ص . 342.

http://www.onefd.edu.dz
جميع الحقوق محفوظة ©

## ثانيا : في المجال الأخلاقي : ماذا يجب أن أعمل ؟

يمكن التماس رأي كانط في مستويين : مستوى العقل العملي ومستوى الإرادة الخيّرة، وفي ما تركته من آثار في غيره.

### 1 . العقل العملي :

وفي مجال الأخلاق، يربط "كانط" بين العقل النظري والعقل العملي أي بين المبادئ القبلية والنزوع إلى الخير. **ويقيم الأخلاق ( أوعلى تعبيره "الواجب") على ثلاثة مبادئ و مسلمات عقلية متكاملة وثابتة : وجود الله وخلود الروح والإرادة الحرّة**، لأنه لا معنى لسلوك خيِّرمن دون الأخذ **أولا**، **بإله مطلق يراقب الأعمال**، وبدون **ثانيا**، **الإيمان بخلود الروح** التي تستحق الجزاء، ومن غير الانطلاق مسبقا، **ثالثا** وأخيرا، من **كون الإرادة حرّة** تتحمل عواقب أعمالها عند الاقتضاء. ومن القواعد الأساسية التي تُلخِّص المبادئ الكلية في الأخلاق، قوله:

**" اِعمل بحيث تكون إرادتك، باعتبارك كائنا ناطقا، هي الإرادة المشرِّعة الكلية ". فبموجب القانون الأخلاقي المفطور في نفوسنا يكون العمل فاضلا وصالحا لا بسبب ما ينتج عن هذا العمل من نتائج حسنة وطيبة أو بما فيه من حكمة، ولكن لأنّ هذا العمل قد أُدِّي وفقاً لهذا الشعور الداخلي بالواجب[1].**

[1] . قصة الفلسفة لـ "ول ديورانت"، ترجمة فتح الله المشعشع ، ص . 218.

جميع الحقوق محفوظة © http://www.onefd.edu.dz

## 2 . الإرادة الخيّرة

وما يحدِّد هذه الإرادة التي يقوم عليها الواجب، عند "كانط" ليس أي "مضمون" أو شرط تجريبي، بل هو **الضرورة الخالصة للقانون الأخلاقي. فالأوامر** على نوعين، كما يُلاحظ "كانط": أوامر **شرطية** مقيدة، وأوامر **قطعية** مطلقة :

**الأولى** تُلزم المرء بإتباع الوسائل الضرورية لإدراك الغايات المنشودة، كأن يقول له قائل : " **إذا أردت** أن **تحبا سعيدا كن صالحا**"، فالحياة السعيدة مرتبطة بأن يكون صالحا.

وأمّا **الثانية**، فهي أوامر مستقلة عن أي **غاية** كقوله : " **كن أمينا**" و " **كن صادقا** " دون أن يربط هذا بالغايات أو الوسائل ؛ فهذا **الأمر كلي وشامل**، ويصلح لكل شخص وفي كل زمان، ولأن **الأمانة فضيلة** في حدّ ذاتها والصدق فضيلة في حد ذاته. وهذا انطلاقًا من قاعدة " كانط" المشهورة : " **اعمل الواجب من أجل الواجب** "، فالتاجر يجب أن يكون أمينا **بغض النظر عن علاقة ذلك بمعاملاته** التجارية مع زبائنه. وتتصف هذه الأوامر المستقلة والمطلقة بأنها **قوانين**؛ أي أنّها **قوانين مجردة وعامة ومطلقة غير مقيّدة بإطاريْ الزمان والمكان**.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

## **خاتمة** : حل المشكلة

وعند العودة إلى **السؤال المشكل** الذي انطلقنا منه، وبعد **عرضنا وتحليلنا لمذهبي العقلانيين والتجريبيين**، يمكن القول بأننا وصلنا إلى موقف جديد **جمعت بينهما الفلسفة النقدية مع "كانط"**. وإذا كان لا بد من الإجابة المباشرة كحل للمشكلة، نقول بأنه **لا يعقل رفض المذهبين معا**، لأن لكل واحد منهما موقفا متماسكا ومتناسقا من قضيته، وهو صادق بالنظر إلى سياقه ونسقه ومنطقه ومسلماته ؛ وقد نرفض أحدَهما لعدم اقتناعنا برأيه **كموقف فلسفي شخصي**، أو لأنّه لا يتماشى مع ميولنا ومعتقداتنا وتصوراتنا الفكرية. وقد نقبلهما معا كنسقين مختلفين إذا جاز لنا عدم رفضهما معا كما مرّ بنا. وقد نهذب التنافر بينهما، بنقل القضية ونقيضها إلى منطق جديد هو المنطق الحركي حيث **يفرض التركيب ضرورته**، ونتجاوز بهذا الأسلوب، التقابل التقليدي السكوني والستاتيكي بين العقلانيين والتجريبيين.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

## تطبيق : نص فلسفي

هيوم Hume

1711 – 1776

« لاشيىء يبدو للوهلة الأولى أكثر حريّة من الفكر البشري الذي لا يفلت من كلّ مرجعية وكلّ سلطة بشرية وحسب بل لا تحتويه حتى حدود الطبيعة والواقع. فتشكيل مسوخ والوصل بين أشكال ومظاهر غير متلائمة أمر لا يزعج المخيّلة أكثر من تصوّر أكثر الأشياء ألفة و طبيعية. ففي حين ينحصر الجسم في كوكبٍ واحدٍ يجرجر نفسه فوقه بعناءٍ وصعوبةٍ، يمكن للفكْرِ أن يحملنا في لحظة إلى أبعد الأماكن في العالم، بل إلى أبعد من العالم... فليس هناك من شيىءٍ فوق قدرة الفكر سوى ما ينطوي على تناقضٍ مطلقٍ.

لكن على الرغم من أنّ فكْرَنا يبدو مالكًا لهذه الحرية اللامحدودة، فإنّنا نجد عندما نفحصه عن كثبٍ، أنّه في الحقيقة محجورٌ عليه في حدودٍ ضيّقةٍ وأنّ كلَّ قدرة الذهن الخلاّقة لا تتعدّى مَلَكَة التركيب والنقل والزيادة والإنقاص للمواد التي تزوّدنا بها الخبرة والحواس. فعندما نفكّر في جبلٍ من ذهبٍ فإنّنا نجمع بين فكرتين متلائمتين نعرفُهما سلفًا : الذهب والجبل. ويمكننا أن نتصور حصانا فاضلا لأن الشعور الذي لدينا عن أنفسنا يسمحُ لنا بتصوّر الفضيلة. ويمكننا أن نوّحد ما بين هذه وهيئة الحصان وشكله، وهو حيوان مألوف لدينا. وباختصار، إنّ كلّ موادِ التفكيرِ مستمدَّةٌ من الحواس الخارجية أو الباطنية, وما يخضع للذهنِ أو

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

الإرادةِ إنّما هو خلطها وتركيبها وحسب، أو ما أعبّر عنه بلغةٍ فلسفيةٍ : جميع أفكارنا، أو إدراكاتنا الأضعف، هي نسخ عن انطباعاتنا أو إدراكاتنا الأكثر حياةً.

وكي أدلّل على ذلك يكفيني، على ما آمل، حجتان،**الأولى** عندما نحلّل أفكارنا أو أيدياتنا[1] ، أيّا كان مبلغ تركيبها وسموّها، فإنّنا نرى أنّها تتحلّل أبدًا إلى أفكارٍ بسيطة كانت قد نُسخت من سابقِ إحساسٍ أو شعورٍ ... و أولئك الذين يؤكدون أن هذه القضية ليست صادقة كلّيا، ليس لديهم سوى طريقة واحدة لدحضها، وهي طريقة ميسورة : أنْ ينتجوا الفكرة التي، في رأيهم، لا تُشتق من هذا الأصل. وسيكون علينا عندها، إن شئنا أن نحفظ مذهبنا، أن نتتبع الانطباع، أي الإدراك الحي الذي يتناسب معها. الثانية لوحصلَ أنّ عيبًا في العضو أفقد امرأً نوعًا من أنواع الإحساس فسنجدُ أبدا أنّه قلّما يكون قادرًا على امتلاكِ الأفكارِ المتناسبة معها، فلا يمكن لأعمى أن يعطي أيّ فكرة عن اللون والأصم أيّ فكرة عن الصوت. [ لكن] أَعِدْ للواحد والآخر الحس الذي ينقصه وستفتح، بفتحِك مسربًا جديدًا للإحساسات، مسربًا للأفكارأيضًا، ولن يجدَ الواحدُ صعوبةً في تصوّر تلك الأشياء... ».

دافيد هيوم

مبحث في الفاهمة البشرية، ترجمة د.موسى وهبة، ص . 39،40.

دار الفارابي 2008

---

[1] . Thoughts or Ideas والأيديا هي الفكرة وتعود للظهور كلّما لزم ذلك.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

تذكير بطريقة الاستقصاء بالرفع : .

| المحطات الثلاث | الاستقصاء بالرفع |
| --- | --- |
| طرح المشكلة | المطلوب إبطال رأي يبدو سليما. |
| محاولة حل المشكلة | عرض منطق الأطروحة؛ |
| | إبطال الأطروحة؛ |
| | نقد أنصار الأطروحة. |
| حل المشكلة | التأكيد على مشروعية الإبطال. |

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

**تطبيق : تصميم مقالة فلسفية : .**

تبدو المسلمة التالية صحيحة : "التجربة هي مصدر جميع معارفنا "، و تقرّر لديك إبطالها، ماذا تصنع؟

**مقدمة : طرح المشكلة .**

حتى نعرف أن لون هذا الثوب أصفر أو أبيض، أو نعرف إن كان الجو باردا أم دافئا يجب أن نحس بذلك، وهذا دفع بعض الفلاسفة إلى الاعتقاد أن معارفنا تعود إلى التجربة الحسية. **لكن** في الوقت نفسه نملك معارف لا يوجد لها مقابل في العالم الحسي، كالخير والعدل والصداقة...الخ، وهذا يثير لدينا شكّا حول الأطروحة القائلة أن مصدر جميع معارفنا هوالتجربة. **ومنه** يمكن التساؤل : هل تعود فعلا، جميع معارفنا إلى معطيات الحس فقط ؟

**محاولة حل المشكلة :**

*** عرض منطق الأطروحة :**

الأصل الأول للمعرفة الإنسانية هو التجربة، وليس العقل. لأن العقل لا يستطيع أن ينشئ المعاني والتصورات الكلية من لا شيء، وعلى نحو فطري، ولا أن يعطي صفة الصدق للمعرفة التي ينتجها.

والعلم في كل صوره، يرجع إلى التجربة. **وذلك لأن** العقل قبل التجربة، يكون عبارة عن صفحة بيضاء، ويبدأ في اكتشاف العالم الخارجي عن طريق الحواس. **وذلك أيضا، لأن** من فقد حاسة، فقد المعاني المتعلقة بها. إن الأعمى بالميلاد لا يمكنه معرفة اللون أو تشكيل أي صورة ذهنية له، مهما كان رجحان عقله.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

***عرض منطق المناصرين ونقده :**

يقول "لوك": " ليس في العقل شيء جديد إلا وقد سبق وجوده في الحس أولا". وقرر الوضعيون المنطقيون : أنه " لا فكر ولا تفكير وكل ما هناك ألفاظ ". وكل لفظ لا يشير إلى شيء محسوس يمكن التثبت منه بالتجربة، يبقى عديم المعنى فلا يوصف بالصدق ولا بالكذب.

**ولأننا** : نعرف الملموس قبل المجرد والخاص قبل العام. ولا نصل إلى المجرد والعام إلا انطلاقا من الملموس والخاص. **ولأن** : ما نسميه مبادئ العقل ليست سوى أفكار أمدنا بها الواقع. إن مبدأ السببية مثلا يُستوحى من التجربة، إذ لاحظ الناس في جميع الأجيال والعصور، أشياء معلولة، وأخرى عللا لها. وربطوا الأولى بالثانية؛ فأصبحت فكرة العلة مقترنة بفكرة المعلول. **لأن** : جميع أفكارنا، تتطور وتتسع مع ما نكتسبه من خبرة، في حياتنا. وتخبرنا التجربة أن عدد الأشياء التي رفض العقل أول الأمر الاعتراف بها، ثم قبلها في النهاية، لعدد كبير جدا.( فكرة مركزية الأرض وكرويتها).

إذا كان الواقع يثبت أن الفاقد لحاسة من الحواس فاقد لما يقابلها من المعارف، فإنه يثبت أهمية الحواس في المعرفة، ولكنه لا يثبت أنّها مصدرها الوحيد. إذن الحواس شرط للمعرفة وليست سببا لها، وهذا ضعف منطقي في فلسفة كثيرٍ من التجريبيين (الخلط بين السبب والشرط). إن الخبرة التجريبية ذاتها أثبتت أن الحواس خدعتنا، ولهذا يجب أن لا نثق بالمعارف التي تمدنا بها الحواس، مالم يتثبت العقل من صدقها. ألا ترى أن العصا المستقية إذا غمست في الماء تبدو في الحس ( البصر) منكسرة لكن العقل يحكم باستقامتها. والطائرة

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

المحلقة في الأجواء كلما ابتعدت بدت للعين أصغر لكن العقل يثبت أنها صارت أبعد.

*** إبطال الأطروحة بحجج شخصية :**

لا يوجد أي مبرر تجريبي يثبت أن صدق الأحكام على حالات جزئية يستلزم صدقها على جميع الحالات المماثلة، والحواس لا تطلعنا إلاّ على معطيات جزئية، لكن المعرفة العلمية لا تكون إلا كلية. إن اليقين الملحوظ في العلوم الصورية . كالرياضيات والمنطق . هو المثل الأعلى لليقين الذي تريد أن تصل إليه البشرية في المعرفة. وهذا اليقين نفتقده في المعرفة التي تقوم على معطيات الحس. لأن معطيات الحس لا تكف عن خداعنا قال "ديكارت" ( وهو أحد العقلانيين) : "كل ما تلقيته حتى الآن على أنه أصدق الأشياء وأوثقها، قد تعلمته من الحواس أو عن طريق الحواس : غير أنني اختبرت أحيانا هذه الحواس، فوجدتها خداعة؛ وأنه من الحذر ألا نطمئن أبدا إلى من خدعونا ولو مرة واحدة ".

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©

**حل المشكلة :**

ومما تقدم يمكن القول أن الحواس شرط ضروري للمعرفة الإنسانية،

لكنه ليس شرطا كافيا بمفرده لتحقيقها، ومن هذا يلزم عن غيابه غيابها، ولا يلزم عن وجوده وجودها. فالتجريبيون بالغوا في تقدير أهمية الحواس في إنشاء المعرفة الإنسانية، في مقابل العقلانيين الذين بالغوا في التقليل من شأنها. إذن التجربة الحسية ليست المصدر الوحيد الذي تعود إليه جميع معارف.

http://www.onefd.edu.dz جميع الحقوق محفوظة ©